التصوير الفني في القرآن

لمؤلفه الأستاذ سيد قطب

للأستاذ عبد المنعم خلاف

نقد وتعليق

هو كتاب شاعر ناثر ناقد ، زاول الشعر والنثر والنقد ، ونجح فى ذلك كله كثيراً من النجاح .

ولا بد لمن يتناول البحث فى القرآن من جانب فنه البيانى أن يكون قد زاول التعبير الفنى ونجح فيه واتصل بفنونه اتصالا وثيقاً ، وأن يكون كذلك له ذوق وحكم وتقليب نظر فى أجواء البيان الرفيع .

ولست أقدم « المؤلف » للقراء ، فهم يعرفونه ، بل أقدم كتابه هذا الذى هو لا شك نظرة واسعة لبيان القرآن جاوزت حدود تلك النظرات القديمة المعقدة الضيقة التى كانت فى أكثرها تتخذ « وحدة » القياس البيانى فى الغالب من العلاقات والتخييلات الجزئية بين أجزاء الجملة . فتنظر لوضع اللفظ وحده فى وصلته بالحقيقة والتخييل ، وقليلا ماتتخطاه إلى الصورة الجامعة وملابساتها وما حولها من الظلال والرموز .

ومن حق المؤلف أن يحظى من النقد بالتفتيش والتتبع لما يكتبه من أدب حر ، لأنه هو يعنّى نفسه فى التفتيش والتتبع لما يكتب المؤلفون ، وتقديمه للناس وتعريفهم به . وهو عمل متعب مشكور ، له أثره فى تعريف الكاتبين إلى أنفسهم أولا ، وفى وجود صدى لا بد منه لآثارهم . وفى إثارة الأذهان نحو النقد والحكم على الآثار الأدبية ومعرفة أهدافها وتبيين آثارها وأساليبها وسماتها ، وفى التاريخ لها أولا بأول ..

والذى أستطيع أن أقوله بسرعة عن هذا الكتاب : إنه ينزل إلى مكان كريم من مكتبة القرآن ، لأنه حديث جديد عميق فى أسرار بيانه ، وعرض رشيق لمذهب من مذاهب الفهم والذوق لإعجاز تعبيره .

وينزل كذلك إلى مكانه من مكتبة بحوث « البلاغة » والنقد الأدبى ، لأنه ظاهرة طيبة لتحررها من النظرة الجزئية وتسديدها إلى النظرات الواسعة الكلية التى تستوفى « الجو » العام الذى صدر فيه الأثر البيانى ، وتتلمس المناسبات الداخلية والخارجية حوله ، وتحلل العلاقات الكثيرة بين الكاتب والمكتوب والقارئ والموضوع .

ويدخل كذلك ببعض فصوله إلى مكانه من مكتبة الأدب الفنى لأنه يكشف عن صورة للقرآن فى ذهن شاعر معروضة عرضاً جميلا بأسلوب ناثر دقيق التعبير مشرق الأسلوب ، له ذوق وحساسية وبيان ، لا بأسلوب « محصل » علم ، إن أصاب الفكرة فقد يخطئ التعبير ..

ويدخل كذلك إلى مكتبة « الفن » وأعنى به هنا التصوير بالريشة والإزميل ، فهو يضع أمام المصورين الباحثين عن المشاهد الرائعة صوراً بيانية للوحات حية مشروحة الدقائق والتفاصيل والأضواء والظلال والأطياف والشواخص والمعانى ، يستطيعون أن يتملّوها ويتفرسوا فيها فيجدوا متاعاً أى متاع ..

وينزل كذلك إلى مكانه من « البحث » المستقصى والتتبع والتحقيق وجمع الحلقات المفرقة عن الموضوع الواحد . كما يتجلى ذلك فى مباحث « القصة فى القرآن » . وهى مباحث استغرقت أكثر من ربع الكتاب وتعد موضوعاً قائماً بذاته فيه .

وقد عرض فى بعض فصوله لكثير من المباحث التى تدور حول القرآن ، ولا غنى عنها لمن يريد أن يتفرس فى بيانه .

***

غير أننى أخشى أن يكون قد أفلتت لفظة أو اثنتان من قلم المؤلف فى أهم فصل من فصول الكتاب خرجت بهما فكرته الأساسية التى عنونه بها فى جو من المبالغة والتعميم .

ذلك أن يقرر فى الفصل الذى أنشئ من أجله الكتاب أن (التصوير هو الأداة « المفضلة » فى أسلوب القرآن) وأن إدراكه وسيلة إلى (إدراكنا « سر الإعجاز » فى تعبير القرآن)

فإذا تجاوزنا عن الفرق بين كلمة « أسلوب » وكلمة « تعبير » وفهمنا أن الأستاذ فى الغالب يريد من الكلمة الأولى معنى الكلمة الثانية ، إذ لا يخفى عليه الفرق بينهما ، وخصوصاً فى القرآن ، فإننا لا نستطيع أن نتجاوز عن إطلاق كلمة « المفضلة » ولا عن

إطلاق « سر الإعجاز » لأن الحكم بتفضيل القرآن للتصوير كأداة فى التعبير يقتضى الاعتماد على « الإحصاء » وظهور نتيجته بكثرة عددية . . فهل إذا أحصينا طرق التعبير فى القرآن نجد ما قرره المؤلف يحظى بالكثرة العددية ؟

إنى أترك له أن يستعرض صفحات القرآن ، فسيجد أن التصوير الفنى أداة واحدة من أدوات التعبير الكثيرة فى القرآن ، وليست هى الغالبة ولا الكثيرة .

فتارة يعبر عن المعنى المراد بالتعبير المتكافئ المعنى واللفظ ، والذى يستخدم الألفاظ الوضعية وحدها ، وتارة يستعير لفظاً واحداً من غير أسرة الألفاظ التى فى الجملة ليحرك به الخيال ويلمس الحس لمساً رفيقاً ، وتارة تكون ألفاظ الحقيقة وملابسات الخيال متساوية ، وتارة تكون ملابسات التصوير وإثارة الخيال هى الغالبة ، وتارة تكون هى الكل ، ومع ذلك يحتفظ القرآن فى كل أولئك بأسلوبه المتفرد وسر إعجازه ؛ فليس التصوير الفنى وحده هو سر الإعجاز فى تعبيره كما يرى المؤلف الصديق .

وحديث سر الإعجاز حديث شغل الباحثين فى القرآن من قديم ، ولا يزال يشغلهم للآن ، وسيظل يشغلهم أبد الدهر ، ولن يصلوا إليه « ويدركوه » وقد « أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض » ؛ لأننا نستطيع فى اليوم الذى « نصل » فيه إلى إدراك سر الإعجاز فى تعبير القرآن أن نستخدمه فى صنع كلام معجز ... وحينئذ لا يكون معجزاً ... ما دام مفتاحه بأيدينا وفى طوق صنعتنا .

فالمعجز من أمور الحياة هو ما لا يمكن الوصول إلى سره واستخدامه . ونحن نجد فى مواريث أرباب البيان الرفيع فى كل لغة استخدام التصوير الفنى للتعبير عن « المعانى الذهنية والحالات النفسية والحادث المحسوس والمشهد المنظور والنموذج الإنسانى والطبيعة البشرية » إلى آخر ما قرره المؤلف من الحالات والسمات والمواقف التى رأى القرآن يعبر عنها على قاعدة التصوير التى تجعل « المستمعين نظارة » فلو لم تفلت هاتان الكلمتان من قلم المؤلف الواعى ، ولو لم يحاول أن يجعل قضية كتابه التى عنونها بها « قاعدة ومذهباً مقرراً وخطة موحدة وخصيصة شاملة ، يفضلها أسلوب القرآن أو بالأحرى تعبيره ، إذاً لجاء المعنى الذى أراده خالياً من هذا التعميم ، ولكان موضوعه كما يحدده عنوان الكتاب هو استقراء « الصور الفنية » فى القرآن وعرضها والتعليق عليها وبيان ما فيها من روعة وأسرار .

* * *

فى الكتاب فصل عن « المنطق الوجدانى » يتصل بالمباحث العقلية حول القرآن وأسلوب دعوته إلى الإيمان بالله الواحد وقضايا الدين . وهو فصل أثار فى نفسى تعليقاً وخواطر حول بيان أساس الدين ، وهل هو الوجدان أو العقل ؟

والمؤلف يرى أنه الوجدان . وأن الذهن ليس أوسع المنافذ ولا أصدقها ولا أقربها إلى الدين .

ونظراً لخطر الموضوع وقيمته فى الدعوة الإسلامية والدينية الصحيحة عامة سأضطر إلى مناقشة هذه الفكرة التى صارت زعماً عاماً انتقل إلى المسلمين الذين أساس دينهم (بل أساس الدين الصحيح كله) العقل ؛ لأننى أعتقد أن المسلمين الآن بحاجة إلى أن يعلموا أن قضية الإيمان بالله الواحد كما استعرضها ودعا إليها القرآن ليست قضية « وجدانية » تأخذ من المجهول للنفس أكثر مما تأخذ من المعلوم لها ، بل هى فى أصلها ومنبثقها الأول تأخذ من «المعلومات» ويقينيات الحس والبداهة والحكم العقلى أكثر مما تأخذ من أى منطقة أخرى من مناطق النفس البشرية ....

فليس الموطن الأول لهذه العقيدة هو الوجدان ، منطقة الانفعال والاستسلام أو الثورة ، بل موطنها هو موطن ذلك «البرق» الذهنى أو العقلى الذى ينتج « حكماً » يرسله إلى الوجدان فينفعل له ويتقبله «ويعقده» فى طويته ويستسلم له ويسير حياته على مقتضاه .

هذا البرق الذى ينتج « الحكم » يستمد حيثيات أحكامه من انطباعات الصور الثابتة للكون فى النفس ومن الانفعالات الداخلية بهذه الصور . والذى أعلمه من علم النفس أن أول «برق» يبرق فى النفس وينطبع فيها هو حقيقة «السببية» التى تفجأ الطفل ويتحرك لها فمه حركة « منعكسة » آلية عندما تلمسه أمه ثديها ، فيجد أثراً واضحاً لذلك التحريك تنفعل له أعصاب الجوع والشبع

وكذلك عند ما يصل إلى عينه أو أذنه أول شعاع ضوئى أو أول صوت فيجد له أثراً فى حساسية بصره أو سمعه ، ثم لا تلبث الآثار المطردة « الأسباب » أن تتلاحق على مجمع حواسه حتى تنتج طائفة من الأحكام المطردة المبنية على الانفعالات المطردة التى يجدها فى حواسه وفيما وراءها

وهذا ما يقرره القرآن نفسه بقوله : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون » فعندما يصل الناشيء إلى ترك مرحلة ذهول الطفولة وإلى إدراك الكون كله كوحدة ، لا يتجه بانفعال وجداني إلى السبب الأكبر للكون لأن ذلك الوجدان لم يوجد بعد ، وإنما يتجه إليه بحكمه الذهني الذي يركب قضية ذهنية منطقية في خفاء وبدون ألفاظ ، يحكم بها بأن لهذا الكون سبباً وقدرة ومشيئة تدبره ... وهي التي أدخلت الإنسان إلى الدنيا العجيبة وتخرجه منها . ولن ينفعل لهذا وجدانه « بالدين » إلا إذا صح لديه هذا الحكم . فإن لم يصح لديه أن لهذا الكون عقلا يدبره فلن ينفعل وجدانه لعقيدة دينية إلا تحت تأثير الخوف والقصور والتهيب أمام المجهول . وليست هذه مواقف الإيمان الصحيح المستنير الثابت الذي لا يتزعزع ، وإنما هي مواقف الإيمان الأعمى القلق الحائر المستعد للتقلب ، كما هو الحال في أكثر الذين لا يأخذون الدين بالفكر عند ابتداء صحوهم من ذهول الطفولة . فالعقل أو الحكم أو « الذهن » يا صديق قطب ، هو صاحب هذا الموضع الأول من النفس ، ينتج لها تلك النتيجة الأولية التي تجعلها تنفعل بوجدانها انفعال الإيمان . وهو الجزء « المتبلور » في جميع النفوس — والوجدان جزء مائع — وهو الحكم الذي يكاد يكون من عالم الأرقام التي تنتج نتائج واحدة بقوانينها الواحدة .

ولن يضيره أن يكون مختلفاً في الناس اختلافا ما . فكذلك الوجدان مختلف .

ونحن في سبيل البحث عن حجة لله على الناس جميعاً . ولن تكون هذه الحجة في أغلب الأمر إلا عن طريق العقل والذهن الذي بما كنا الله إليه دائما في الحياة وفي القرآن ، ويردد اسمه دائما ؛ ويلومنا ويقرّ عنا بأننا لا نفكر ولا نعقل ولا نتدبر ولا نتذكر ولا نتخذ أسباب الوقاية كما يوحيها العقل .

نعم إن الوطن النهائي للعقيدة الحارة هو الضمير والوجدان ، ولكن بعد أن تمر من العقل أولا ويحكم بوجوب سكناها في الوجدان لتستمد من حرارته قوة الاندفاع والعمل للدين .

وقد كان الوثنيون الذين أنزل إليهم القرآن يعتقدون عقيدة في « وجدانهم » ويتعصبون لها ويصدرون عنها في حياتهم ، لأن أذهانهم كانت تحكم بصحتها . فماذا زعزعها القرآن في وجدانهم وضميرهم ؟ أليس بالمحاكمة العقلية التي كشفت عن عقولهم ضباب الوثنية القديم ، وأدركوا بها الحق الأول بالذهن والحكم ، ثم أخلوا وجداناتهم من العقيدة القديمة وأحلوا محلها العقيدة الجديدة؟

والوثنيات تجد في منطق الوجدان وحده مدداً متصلا لها بالانطلاق وراء الرموز والتهاويل والإثارات الفنية التي هي باب الوجدان ... وقد افتخر « طاغور » واحتج للوثنية بأنها مجال طيب لرقي الفنون ... ولاشك أن هذا احتجاج طفلي وجداني لا يتصل بسبب كريم بالحق والعقل والكرامة الإنسانية والمصلحة الاجتماعية . فالقول بأن منطقة الدين هي الوجدان وحده قول غير إسلامي . أخذه المسلمون المحدثون عن المفكرين غير المسلمين الذين لم يعرفوا الأساس الأول للإسلام والدين عامة ، والذين وجدوا في أديانهم أسساً يأباها العقل والمنطق ، ووجدوا الدين في حد ذاته كفاية نفسية لابد منها ، فأرادوا أن يجمعوا بين الدين والعقل ، فزعموا أن لكل منهما منطقة قد يناقض ما في إحداها ما في الأخرى ولا ضير ! أما الإسلام فأساسه أن إله القرآن هو الإله الذي وصفته الطبيعة ووجهت العقل اليه ؛ واعتمدت في هذا التوجيه على المحاكمات العقلية كأساس أول وعلى المحاكمات الوجدانية المبنية على هذا الأساس ، وقد استخدم القرآن في سبيل ذلك كله البيان المشرق الجميل البارع المعجز في تعبيره وأسلوبه .

ولم يقصر خطابه على طائفة واحدة معينة هم طائفة الذين ارتفعوا عن المستوى العام للناس واحتكت عقولهم بما وراء سطح الحياة وما وراء البداهة والحس من عوالم الفروض والصور الطليقة من قيود الحياة الظاهرة ، بل خاطب الناس بالقدر المشترك بينهم جميعاً وخاطب هذه الطائفة الممتازة في بعض معارضه كما خاطب المبتدئين القاصرين في البعض الآخر

والقرآن يفرض الفكر ميزاناً قائماً بذاته مستقلا عن الإنسان ثم يعجّبه مما يراه في الوجود ، كأنه زائر غريب عن الحياة دخل إليها من عالم آخر وهو بكل وعيه ، ولا شك أن الفكر بجميع قواه حينما يدخل إلى الوجود كأنه غريب عنه يعجب غاية العجب من بدائعه ويحكم الحكم الجازم بأنه لبارئ واحد . وليس هنا مجال تفصيل هذا ، وقد سبق أن عالجناه في بعض البحوث .

فالموقف الأول من الكون والإيمان بربه الواحد ، موقف « جزم » بالذهن والحكم العقلي . إذ أننا نشعر ونحس أننا

واقفون إزاء « معلومات » تنتج العلم والحكم الضرورى البديهى والمركب .

وهو موقف دينى سابق على مجىء النبوات والرسالات ،لأنها تعتمد عليه فى التدليل على قضاياها والتحاكم إليه . فالدين عقلى طبيعى فى الإيمان بأصله الأول وهو الله الواحد .

ولقد وجدنا كل جماعة دينية تؤمن بما عندها بوجدانها . فهل لهذا وزن إلا عند ما يدركون شاكلة الحق الذى عند الله والذى يوحى به الكون ؟ وهل يدرك الحق إلا بقوة « الحكم » التى هى موضع الحساسية بالعدالة والقوانين الطبيعية التى استمددنا منها حكمنا ، والتى لا تنظر إلى الصور والإطارات وإنما تنظر إلى صلب الأمور ؟

***

والقرآن لم يعن بأن يرد على منكرى وجود الله . وكأنه لم يفرض وجودهم . أو كأنه نظر إليهم على أنهم خارجون عن نطاق العقل والبداهة ، ولذلك لم يحاجهم ولم يوجه إليهم قولا يشعر بأن لهم وزناً . وإنما وجه حديثه الأكثر إلى المشركين مع الله آلهة أخرى ، الذين من فرط شعورهم بالألوهية استكثروا منها ... وخلعوا صفاتها على كثير من المخلوقات ، فهؤلاء لديهم الإيمان الوجدانى ولكنه إيمان مدخول منكوس يحتاج فى تعديله وإقامته فى نصابه الطبيعى إلى منطق عقلى يستعرض الكون ويستقرئه ويستنتج منه أنه لإله واحد .

فالحديث مع هؤلاء المشركين لايستلزم إلا الإيقاظ إلى الكون وأعاجيبه الموحية أنه من صنعة يد واحدة ... وهذا مافعله القرآن . أما الذين التمسوا وراء حديث الإيمان الفطرى مناطق يتحدثون فيها عن ذات الله وصفاته والكون ومبدإ وجوده وعلاقته بالله وصفاته ، إلى آخر مباحث علم الكلام والفلسفة فهؤلاء لا يدعون أنهم يؤسسون عقيدة للجمهور بكلامهم ، وإنما يريدون أن يعملوا بين هذا الكون المادى العجيب وبين ما قبله وما بعده . وموقفهم هذا موقف طبيعى ، هو نتيجة للعجب الذى يرونه فى هذا الكون ، ونتيجة لشعورهم بأن عقلهم وحكمهم يريد أن يتصل بألغاز الحياة وما قبلها ومابعدها . فإنهم يشعرون أنهم غرباء ، فى هذا الكون المادى ذى القوى الموزونة والطلعة الجبارة المثيرة للفكر أيما ثورة . ولا بد للغريب أن يبحث ويتقصى ويتعرف المكان الذى دخل إليه ويتعرف إلى صاحبه ويبحث عن شئونه حيثما ساعدت الوسائل .

غير أنهم يجب لكى يضمنوا الحياة العملية فى الأرض والألفة العقلية ألا يشردوا ويحملوا عقولهم فوق ما تطيق ، ولا ينسوا أن الإله الحكيم الذى وضعهم هكذا قاصرين عن إدراك كثير من الأمور ، وعن إدراك المبدأ والمنتهى إدراكا كما يشتهون ويتطلعون ، إنما فعل ذلك لحكمة بالغة هو يعلمها ، فيجب أن يلتزموا حدود « الضيافة » المؤقتة فى هذه الحياة . ولا شك يكون لهذا الالتزام ما بعده من التناسق بين الفكر والعمل والألفة العقلية . وما كان للقرآن أن يكون على أسلوب تفكيرهم الخاص وهو قد جاء ميسر الذكر للناس جميعاً .

ولكنه مكن هؤلاء العقليين والمتفلسفين أن يؤلفوا من معانيه التى تحت « سطحه التعبيرى » قضايا ذهنية يستطيعون أن يستخدموها فى أسلوبهم الخاص . فهو قد ساق قضية عقلية عظمى بأسلوب بسيط ميسر للناس جميعاً حينما قال : « لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا » ؛ وترك للعقليين أن يبينوا كيف يكون هذا الفساد حينما يفرض التعدد فى الآلهة ...

وحينما قال: « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض » . أرسل هذه القضايا هكذا واضحة ميسرة ، وترك للعقل أن يتحاكم إلى الكون ويستقرئ أحوال الأشياء إذا كانت بين والد ومولود وإذا كانت بيد واحدة ، وإذا كانت بأيد متعددة ، وعماد الحكم فى ذلك هو الحركة العقلية الآخذة من كل مورد من موارد النفس والكون وكل قوة من قواها لتصل إلى الحكم .

والمتتبع للقرآن يرى أن وراء « سطحه التعبيرى » السهل اليسر ، عالماً يموج بالمسائل العقلية والبديهية والفرضية تضع العقل البشرى فى موضع أصيل كريم كأنه هو وحدة القياس فى كل العالم لا فى الأرض وحدها .

* * *

وأخيراً أشكر المؤلف الصديق على هديته التى جعلتنى أعيش فترات فى جو فنى بديع ، فيه الفكر والبيان ، وحسن التبويب ، ولطف المدخل إلى ما تناوله من موضوعات .

عبد المنعم خلاف